زينب

عادل بن إبراهيم حنزولي

أنت الآن بعيد ومنسيّ، لكنّك ناجٍ من الخطر.. تجلس في ركنك وحيدا، تقول كلام الغزل لقهوتك و.. ترتشف.. تمرّر إبهامك على شاشة هاتفك الذكي كرجل غبيّ، وتنفث دخان السجائر دوائر دوائر دوائر.. منسحبا من الدائرة. تمدّ ساقك، تسحبها إلى الخلف، تتمطّط كقط، تحكّ جلدك ككلب، ثمّ تضغط على أحبّ هذا أحبّ هذا، تلك الكلمة المرسومة على شاشة هاتفك الذكيّ ويكفيك إذن إلقاء سبّابتك على الكلمة ليعرف كلّ هذا العالم المشوّش كشعر رأسك أنّك تحبّ.. تحبّ هذا!!

تمرّر يدك اليمنى أمام وجهك لتطرد ذبابة بائسة حطّت فوق أنفك، تتزعج فجأة، وتشعل سيجارة أخرى. سيجارة مهرّبة زهيدة الثمن، ويكفيك دينار واحد لتشتري من مثلها علبة أخرى.. تسافر مع خيالاتك وتبرد قهوتك عصارة البنّ المحروق في مقهى الشعب.. ثمّ ماذا؟ هل تعود أدراجك وتبحث عن زينب؟ أم تختفي حدّ التلاشي الرمزيّ في هذا الفضاء الكونيّ الواسع!!

زينب تعرف كلّ شيء. الحقيقة كلّها مع زينب، لولا أن تكلّموا معها.. لولا

أن سمحوا لها بأن تقول، لكان كلّ شيء يتغيّر الآن.. ولكنت تنعم بالسلام.

إنّها حكاية متشابكة الخيوط، ورأس الخيط مع زينب. لكن ما دخل زينب؟ الصافي هو سبب المشكلة.. أليس هو من منعك من الزيارة؟ أليس هو الذي فتح فمه فلم تُغلق بعده الأفواه!! الصافي رجل بغيض، يعتقد دائما أنّه سيّد المعنى والأخلاق.. ينصّب نفسه ربّا ليحاسب الناس. وهو ليس إلاّ كذّابا ومتعجرفا. وإلاّ فقلّي ما سرّ علاقته بفتاة الحانة الشابّة؟ وماذا يصنع وحيدا حتى الآن؟ وما سرّ رحلاته الأسبوعيّة إلى السواحل؟! أليست الخطيئة وفتيات الليل.. لو أصغيت لهؤلاء الناس حولك لحدّثوك من هو الصافي.. كلّ هؤلاء يعرفون قليلا أو كثيرا عن نزواته وغراميّاته. لا تنخدع كثيرا بصورة الورع التي يرسمها ولا بشخصية العفيف الزاهد التي يجسّدها ففي الليل ينقلب صافي إلى شيطان.. ينزع قناع التقوى ولباسه ثم يصبح فجأة شيطانا!! صدّقني إنّه كاذب في تقواه ودعواه.. لا شيء أحبّ للمحتال من تجارة الدين. فالدور سهل وتأثيره عظيم فمن منّا لا يحبّ أن يرى التقوى ترتسم داخله وخارجه. ومن منّا لا يحب أن يرى صورة خوفه من الله منطبعة على جسد الآخر. ومن منّا لا يحبّ أن يكون ساذجا في حضرة من يتقن دوره كخادم ورع لدين الله فالناس جميعا يحبّون الله، وهذه هي خطّة صافي. إبعاد الشّبهات عنه قدر ما يستطيع وليس أقدر على ذلك من التّظاهر بالعفّة والتّقوى..

لا تعد أدراجك.. لا تبخس نفسك.. اِلعنهم داخلك بقدر ما تستطيع!! اذهب بعيدا وسافر.. ما حاجتك إلى العيش وسط هذه الرّمم من البؤس والفقر والجهل.. ثمّ من هو عمّ لطيّف هذا؟ أليس مجرّد "قمّارجي" يمضي نهاره في الصّلاة ويقامر ليلا داخل فضاء "بلانات" عزيّز!! الأخلاق يا عويس، الأخلاق.. ألا ترى في أيّ هوّة تسقط!! ألا ترى في أيّ هوّة نسقط جميعا؟!! إنّك مُستلب وضائع.. مسحوب بقيودك إلى الأسفل.. لو فقطت استمعت إليّ!! لو فقط أطعتني.. أطعتني أنا شيطانك.. لكنت الآن في مدينة أخرى، تعيش أطوار حياة أخرى.. حياة صادقة ولذيذة. حياة حيث لا بؤس فيها ولا عادات سيّئة. لا مقاهي تأكل أعمارا من الخواء والظّلمة. ثقب أسود يمتصّ كل تلك الطاقات مجتمعة ويلقي بها حيث الجنون والخيبة.. أنت نفسك تصير جزءا من الخيبة واللعنة، أنت نفسك لست إلاّ قطعة لحم معجونة جيّدا بمرق بلاهتهم.. "علكة في الأفواه تصير ويغيب عنك التّدبير ويخيب المصير" أليس هذا قول العرّافة المتجوّلة، نبوءة قديمة يا سيّدي قالتها لك وأنت غضّ طريّ، لم تتجاوز العاشرة. ارتعبت، احمرّ وجهك، خفت، بكيت. بينما كان رفاقك يضحكون.. أطفال في العاشرة يلهون، رأوا العجوز فمالت نفوسهم إلى الضّحك معها. الضّحك على ذقنها. لكنّها أبكتك أنت.. فلماذا بكيت؟ كيف فهمت عبث تلك الكلمات المسجّعة، "المرقومة" كما كانت تقول جدّتك!! ماذا

فهمت منها يا رفيقي الذي أغرقته في المعاصي؟ هل استشعرت رعبا من لكنة العجوز الغريبة أم أسرك تجلّ ما وانفتاح على الغامض الموحش!! أم هي الخيبة تسكن روحك طفلا وتضاجع قلبك البريء!!

ها هي النّبوءة تصدق، وها هي الدّنيا توليك ظهرها كاشفة وجهها القبيح. وها هي هدى تتهادى بعيدا لتنام في أحضان رجل آخر وتشتمّ عطره الفرنسيّ. فاز بها بضربة حظ، حياته كلّها ضربة حظّ.. ألا تذكره؟ أنت لا شكّ تذكره جيّدا. "الفالح" زميل دراستك القديم، وبينما أمضيت أنت السّنوات تضيّع الوقت في طلب العلم عساه يرتقي بك إلى مراتب الشّرفاء، كان الفالح قد كفر بكلّ الحروف الّتي تعلّمها. لم يتعلّم غير بعض الأرقام التي تفيده في الحساب. عرف الفالح ماذا يتعيّن عليه أن يأخذ من المدرسة. الأرقام ولا شيء غيرها ينفعه، ومع كفره بالحروف كان الفالح ينسى كلّ القيم الّتي علّموكم إيّاها في المدرسة وفي البيت.. ما نفع القيم والمال سلطان؟ أليس هو قوام الأعمال كما يقال.. وهكذا كان الفالح الذي طالما سخرتم من عثراته المدرسيّة اليوميّة ومن بلادة عقله صباحا مساءا ويوم الأحد، كان أذكاكم جميعا.. وعرف ما تحتاجه هذه البلاد. هي ليست للمفكّرين أمثالك. ليست لأولئك الذين لم يتعلّموا من الحياة غير مسك القلم. أولئك الذين أمضوا ليالي

طويلة جوفاء في عذاب المعرفة، وها أنتم تُسحبون من إنسانيّتكم برمّتها بجرّة قلم.

هدى يا نغم الروح، يا بلسما للجروح، يا ندى الزهور الشذيّة، ويا أنوار الفجر الخفيّة. أحقّا صرت غريبة وبعيدة كنجمة ملقاة في الفضاء؟ كغيمة مسافرة في الصّحراء؟ كيف تنام هدى بين أحضان الفالح؟ وكيف يلتقيان تحت سقف واحد؟ كوردة وتيس.. عصفورة وقطّ برّيّ!! هل يمكن لمعادلة كهذه أن تستقيم في علم الحساب يا شيطاني؟! يا رأسي المنخور بالذكريات والأوجاع!!

الصافي يقول إنّ هدى راضية وسعيدة. الصّافي يقول إنّ هدى مستبشرة بمكتوبها، وأنّها الآن ليست فتاة طائشة تلهو معلقة الآمال بالوهم. بل هي الآن تعرف مصلحتها جيّدا، ومصلحتها مع الفالح. رجل طيّب وخلوق، يصلّي فروضه بالمسجد، وينام كالبهيمة لينطلق من الفجر في رحلته لكسب القوت..

هل كان حبّنا طيشا يا هدى؟ هل كان وهما؟ أهكذا تُغيّر الحياة النّاس؟!!

ليست الحياة يا سيّدي الذي أغرقته في المعاصي، ليست الحياة، المال هو لغتنا الجديدة.. المال هو فروسيّة عصرنا.. كن ما شئت لكن بجيوب ملأى، وأرصدة وبيت كبير، ويا حبّذا أن تمتلك ناقة ميكانيكيّة كذلك.. "الكرهبة" يا حبيبي "الكرهبة"، هكذا سأحترمك مهما كان فعلك، حتّى لو تاجرت بالبشر،

لا يهمّني. المهمّ أن أحسدك وأمتلئ ذلاً، وأسارع تزلّفا حين أراك..

هدى ناضجة.. هدى ابنة عصرها.. تريدها أن تترك رجلا لا يعرف نهاية لأملاكه، لتتزوّجك أنت!! ومن تكون أنت؟ رجل عابس طول الوقت، تحرق السجائر وتلوك كلام الشعراء في المقهى!! وفي اللّيل تنفتح على الكتب.. تقرأ وتقرأ وتقرأ.. تمتلأ ضجرا بكلام الغابرين ثمّ تنام كبهيمة ولا تستيقظ إلاّ بعد أن تدكّك الخالة زهرة بالشتائم المسترسلة التي لا تنتهي بل ترافقك وأنت تخرج صائما، تفتح يومك بسيجارة تشربها على معدة فارغة وأمعاء خاوية، بينما يعتصر رأسك بكلام الفلاسفة والمتقوّلين!!

الآن تستطيع أن ترتاح. هاهي آمالك في هدى تخيب وتستريح، وها أنت حرّ من ذكريات أمس.. فليهنئوا بحياتهم ولتهنأ أنت.. يعجبني صدقهم. تعجبني حكمتهم.. ماذا عسى هدى تستفيد من شهادتها العريضة الطويلة؟ تعلّقها على الجدار كسرّ غرورها المعلّق بقلبها؟ أم تزهو بين نساء جاهلات تكسو معاصمهنّ أسوار الذهب ويمضين النّهار كما اللّيل في تصيّد حكايات الناس والجيران والتّندّر بحكايات البؤس الذي يلفّ رقاب النّاس حولهنّ؟ أم كنت تريدها أن تلقي بجسدها الطّريّ في رحابك لتلتهمها كما يلتهم قطّ فأرا سمينا ثمّ يلعق فمه؟ وبعد سنوات قليلة تترهّل هدى ويرتخي نهداها، وتتحوّل إلى كتلة شحم قليلة اللحم تتحرّك كما يزحف فرس النّهر، لتتفرّغ أنت إلى

غراميّاتك ولهوك ثمّ تتشدّق بكلام الشّعراء في المقاهي البائسة بينما تغرق هي في الفقر والحاجة واهنات ألسنة الناس التي لا ترحم!! هدى على صواب في اختيارها للفالح، لو كنت مكانها لاتّخذت نفس القرار.. الصافي أيضا على حقّ، صفقة مع الفالح لا تُضيّع من رجل لئيم مثله. وهي فرصة تاريخيّة له ليظهر بمظهر الرّجل الصالح صاحب الموقف. الرّجل الذي تهمّه ابنة خالته كما أخته.. والفالح أيضا على حقّ.. أين سيجد عروسا مثل هدى؟ شابّة متعلّمة وجميلة وطريّة!! أيقونة بلدتك الحزينة.. ووالد الأيقونة يريد الاطمئنان على ابنته قبل أن ينام نومه الأخير. لذلك يسند جائزته للفالح، وهو فعلا فالح. فالح وشاطر.. أرأيت؟ كلّ النّاس حولك أذكياء. يعرفون ما يناسبهم.. يقدّرون حياتهم ومواهبهم. أما أنت ف"على مراد الله.." منذ ولدت وأنت "عقوبة الله" لم تعرف من الحياة غير مسك القلم.. وحين يفتح الخليج العربي أحضانه ليحتويك تتحجّج بآلاف الحجج الواهية وتخلد إلى الأرض.. ما الذي يعجبك في الوطن لتبقى؟ وما الذي يخيفك من الغربة حتى تغوص في الأرض كيربوع وتأبى الرّحيل؟!! لو أطعتني لكنت هناك الآن.. رجل مقيم في الإمارات منذ سنوات، أنيق على الدوام، له سيارته الشخصيّة، منزله فخم، أرصدته في البنوك تدقّئه، لم يعرف شيئا اسمه الفقر أو الحاجة منذ غادر البلاد، زوجته مصريّة مثقّفة، تعرّف عليها في بلد عربيّ شقيق، وأذابت قلبه

حين جذب كرسيّها إلى الوراء لتجلس في إحدى اجتماعات موظّفي الشركة فقالت:" كلّك ذوق."

ما رأيك في هذا الحلم الذي أربّيه داخلك منذ سنوات قليلة؟ حين باتت الحياة هنا كطعام الكلاب العفن!! أليس حلما جدير بأن يعاش، كما هي حياتك هنا جديرة بأن تعاف!! لكنّك ألقيت بكلامي عرض الحائط ورحت مؤمنا ببلدك مطاردا حب هدى، ثم تقول كأبله وقد هزمت:" هدى وتونس نغمتان على نفس المقام" وهاهي تونس توليك ظهرها، وهاهي هدى بعيدة وشاردة. فماذا بعد يا مهزوم أفكارك الطوباويّة!!

أمازلت تحتاج زينب؟

فعلا أنت لا تحتاج غير زينب وكتاب..

***